(التعريف والنقد)

نَظَراتٌ في سِيرة كَشَاجِمَ وآثارِه

(القسم الأول)

الدكتور محمد بن عبد الله العزّام

لم أكن أعرف شيئاً كثيراً عن أبي الفتح كَشاجم، ولكني انصرفت في بضع السنوات الأخيرة إلى دراسة سيرة أبي الطيّب المتنبيّ وأخباره وشروح ديوانه، فكنت أعجب من غياب اسم هذا الشاعر المشهور من أخباره ومن أخبار سيف الدولة، مع أنَّه كان يعيش في حلب وكان فيما يقولون من شعراء سيف الدولة.

طبعات الديوان:

ثمَّ اطَّلعت على الطبعة الجديدة من ديوانه، وهي بتحقيق الدكتور النبوي شعلان ومن منشورات مكتبة الخانجي بمصر في عام ١٩٩٧. فإذا مكتوب على الغلاف: **المتوفَّى سنة ٣٦٠**، فازداد العجب لأن المحقّق الفاضل ينبغي أن يكون قد حرَّر المسألة، ولكن ظهر أنه لم يبحثها أصلاً، ووجدته يردِّد الكلام المعروف عن سيف الدولة وإكرامه للشعراء، وتوسَّع فيه في مقدِّمة كتاب أدب النديم، من غير الاهتمام ببحث وجود كَشاجم في قَصْره وعَصْره، كأنَّها مسألة مفروغ منها.

ولكنَّه قصرَّ في استخراج الأشعار المتنازع عليها بينه وبين السَّريّ الرَّفَّاء، مع أنه وقف على ديوان السَّريّ الصادر عام ١٩٨١. وهذه الأشعار تَدُلّ على مقدار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاضطراب في رواية ديوان كَشاجم، والتداخل بينه وبين دواوين معاصريه، وبعضها لا وجود له في أصل ديوانه ولا في زياداته. ولم يرجع المحقِّق إلى كتاب المصايد والمطارد المنسوب لكَشاجم، وهو مطبوع ، وفيه أشعار كثيرة منسوبة إلى كشاجم وأشعار ينسبها المصنِّف إلى نفسه، ولا يخلو الكتاب من إشكال. ولعلَّه لم يسمع بكتاب البيزرة الذي يقال إنَّه من تصنيفه (لأن المصنِّف ينشد أشياء من شعر كَشاجم على أنَّها من شعره)، وهو مطبوع أيضاً. ونسي نشر ترجمته الموجودة في بعض النُّسخ، ولقد اتّسع المقام لنشر كلام كثير ليس له علاقة ظاهرة بالشاعر، فكان يَجب نشر الكلام المتعلِّق به، ولا سيَّما أن تراجمه في الكتب قليلة. وانصرف ـ مع الأسف ـ إلى الهجوم على الدكتور سامي الدهان رحمه الله، واتهامه بشتى التُّهم بعبارات غير مستحسنة، لأنه استخرج بعض أشعار الخالديين من ديوان كَشاجم، بينما يجزم هو بأنَّها لكَشاجم من غير دليل إلا وجودها في ديوانه. وهذا الهجوم لا مسوِّغ له لأن دسَّ أشعارهما في الديوان أمر معروف مشهور مقطوع بوقوعه.

وقد حُقّقت هذه الطبعة من الديوان على النُّسخة المصرية (أعني نسخة دار الكتب المصرية ذات الرقم ٤٥٧٩)، وعُورضت على نسخة بطرسبرغ وطبعة بيروت القديمة، وعلى أربع نسخ حديثة في مصر. وازدحمت الحواشي بفروقاتها مع أن كثيراً منها تصحيفات واضحة لا قيمة لها. وفات عليه استخدام نسخة الدار المهمّة ـ ذات الرقم ٧٩م ـ التي اطَّلع عليها الدكتور الدهان فوجدها سالمة من بعض الشعر المدسوس. وأهمّ من ذلك أنه لم يقف على نسخة برنستون وهي أجلُّ النُّسخ على الإطلاق.

أما الطبعة العراقية فقد صدرت في بغداد سنة ١٩٧٠، وهي بتحقيق السيدة الفاضلة خيرية محفوظ. وقد اتخذت النسخة المصرية نفسها أصلاً كما قالت، وعارضتها بنسخة بطرسبرغ ونسخة برنستون وطبعة بيروت القديمة. ولكنَّها أفرغت جميع الأشعار الواردة فيها وفي سائر المصادر في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ترتيب هجائي واحد، وخلطت بين كَشاجم وبين ابنه أبي نصر في بعض المواضع، وأغفلت الإشارة إلى أن بعض القطع وردت ملحقة ببعض النُّسخ، فضاعت معالم الديوان واختلط الحابل بالنابل.

ولم يقف محقِّق الطبعة المصرية على هذه الطبعة العراقية، وتجاهلها فلم يذكرها ولو من أجل الاعتذار عن عدم الاطّلاع عليها. وهي منتشرة بأيدي الناس وطالما أشار إليها الباحثون، ونحن في عصر الاتصالات والمجلات العلمية والمكتبات ومعارض الكتب. وهو أولى بمعرفة وجودها لأنَّه حريص على كلّ ما يتعلَّق بكَشاجم، وقد رجع إلى دواوين أخرى ممَّا صدر في العراق ومنها ديوان السَّريّ الرَّفَّاء، فلا أقلَّ من أن يكون قد سمع بها في المجالس والكتب والمقالات. فكان يجب عليه أن يبحث عنها ويستفيد منها. وبلغني أن الأستاذ هلال ناجي استدرك على الطبعة العراقية في بعض المجلات، ثمَّ نشره في كتابه (هوامش تراثية). فلم يرجع إليه المحقِّق إن كان قد علم به. وهذا باب خطير من أبواب النقص الملحوظة في الأعمال العلمية العربية، أعني ضعف وسائل الباحثين عن معرفة البحوث المنشورة والحصول عليها للاستفادة منها، فتضيع الجهود السابقة لأنها لا يُستفاد منها، وتضيع الجهود اللاحقة لأن الجهود الأولى تُغني عن كثير منها.

ولم أقصد في هذه المقالة إلى نقد هاتين الطبعتين، مع أن الحاجة قائمة إلى نقدهما. ولا يزال الديوان في رأيي بحاجة إلى تحقيق جديد صحيح!

اسم أبيه وجدِّه:

لقد وقع القدماء والمعاصرون في أوهام كثيرة تتعلَّق بكَشاجم، فاختلفوا في اسم أبيه وجدِّه وفي كنيته وفي تاريخ وفاته، وأورد بعضهم أخباراً لا تصح عنه. وسوف أشرح هذه الإشكالات ثمَّ أعرض رأيي في تخريجها، وهو تخريج قريب موثَّق يفسِّر أكثرها من غير تكلُّف إن شاء الله.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأوَّل إشكالٍ يتعلَّق باسم أبيه وجدِّه: فقد أجمعت نُسخ ديوانه وجمهور المصادر على أنه (أبو الفتح محمود بن الحُسين)، وزاد بعضها بعد الحُسين (ابن السِّنْدي بن شاهك الرَّمْلي). ونص عصريّه المسعودي على ذلك في مروج الذهب ٣٦٦/٤، وقال في موضع آخر (أنشدني أبو الفتح محمود ابن الحُسين بن شاهك الكاتب، وكان من أهل العلم والدراية والمعرفة والأدب). وقال ابن العديم في ترجمة أبي نصر من بُغية الطلب ١١١/٣ ما مختصره (أحمد بن محمود بن الحُسين بن السِّنْدي بن شاهك، أبو نصر بن أبي الفتح الكاتب المعروف والده بكَشاجم من ولد يزدجرد ـ وقيل اسمه محمَّد، وقيل الفتح ـ شاعرٌ ابن شاعر، **كان مع أبيه بحلب**). وقال الزِّركلي في حاشية الأعلام ١٦٧/٧ ما مختصره (كذلك ورد اسمه في مقدِّمة نسخة قديمة من ديوانه كتبت سنة ٥١٤، ونقل حبيب زيات من مخطوطة اطلع عليها أن له ابناً اسمه أبو الفرج أحمد بن محمود بن الحُسين بن السِّنْدي بن شاهك). فهناك اضطراب في اسم ابنيه، **ولكن لا خلاف على أنَّه محمود بن الحُسين بن السِّنْدي**. وقد صرَّح هو باسم جدّه السِّنْدي فقال:

في سطورِ أعارها جَدِّي السِّنْـ ـدِيُّ من نقشِ نفسهِ في النقودِ

ومن الممكن أن يقال إنه جدّ أبيه، ولكن لا ينبغي ـ والحال هذه ـ العدولُ عن المعنى الحرفي إلا بدليل.

والإشكال في ذلك أن السِّنْدي بن شاهك رجل معروف، وكان صاحب الشرطة والحرس للرشيد المتوفَّى سنة ١٩٢ كما في الوزراء للجهشياري ٢٣٦ وغيره، وقال ابن خلكان ٣١٠/٥ في ترجمة موسى الكاظم الذي حبسه الرشيد (وكان المُوَكَّلُ به مدَّة حبسه السِّنْديَّ بن شاهك جدّ كشاجم الشاعر المشهور). وله أخبار مع الهادي والأمين والمأمون، بل قال بعض الدارسين إنه كان من خاصّة أبي جعفر المنصور المتوفَّى سنة ١٥٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما يستفاد من كلام الجاحظ في البيان ٣٢٨/٢. فكيف يعيش حفيدُه كَشاجم ليكون شاعراً أو طباخاً لسيف الدولة المتوفَّى سنة ٣٥٦ وتقع وفاته في سنة ٣٦٠؟ هذا لا يكون في المعتاد من الأعمار مع أنه غير مستحيل، ولكنَّه بعيد جداً.

واضطربوا في تخريج هذا الإشكال. فقال الزِّركلي في الحاشية (لا بدَّ من أبوين على الأقلّ لملء المدَّة)، وأشار إلى قول السيوطي في حسن المحاضرة ٥٦٠/١ بأنه محمود بن محمَّد بن الحُسين بن السِّنْدي، واستحسن هذه الزيادة لأنها تسدّ الفراغ. ولكنَّه لم يأخذ بها كما يتضح من ترتيب الأسماء في كتاب الأعلام ومن التعقيب عليه بذكر إجماع النُّسخ على خلافه.

أمّا الدكتوز شعلان فجاء في مقدِّمة تحقيقه الديوان – وفي مقدِّمة أدب النديم أيضاً – بتخريج من أغرب ما يكون ! فقد استخرج من كتب الجاحظ اسمي نصر وإبراهيم ابني السندي بن شاهك، وزعم – من غير دليل – أنه لم يكن لهما أخ ثالث، وأن كَشاجم يَجِب أن يكون حفيداً لإبراهيم لأن الجاحظ أثنى على علمه وفضله فهو أولى بأن يكون جدَّ كَشاجم! فوقع في ثلاثة محاذير: زيادة اسم في سلسلة النسب، وتخصيص إبراهيم من غير مخصِّص، وإنكار أن يكون الحُسين ابناً ثالثاً للسندي! وهذا النوع من التلفيق لا يُعالجُ عليه.

وإنَّما وقع الناس في هذا الإشكال لقعودهم عن تحقيق عصره.

كُنْيته:

أطبق المؤرخون والأدباء على أنَّه أبو الفتح، وأجمعت على ذلك نسخ الديوان بحيث لا يُرتاب في ذلك على الإطلاق. ولكن شذَّ السيوطي فكنّاه بأبي نصر، فقال شعلان في مقدِّمة الديوان (لم أدر من أين جاء السيوطي بما قال في اسم الشاعر وكنيته). والحقّ أنه لم يبتدع شيئاً من عند نفسه، فلقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سبقه إلى ذلك الذهبي في تاريخ الإسلام ٢٣٣ (جزء وفيات ٣٦٠) وسير أعلام النبلاء ٢٨٥/١٦ والعبر ٣٢٢/٢، وابن كثير في البداية والنهاية ٢٨٥/١٦.

وهذا الإشكال أيضاً فرع من الإشكال الأول، وسيأتي جلاؤه إن شاء الله.

تاريخ وفاته:

ثمَّ يأتي الإشكال الأعظم في تحديد عصره وتعيين تاريخ وفاته. ولا أجد بُدّاً من استعراض أقوالهم مرتبة على التواريخ، وهي على النحو التالي:

* فورد في مقدِّمة الطبعة الأولى من الديوان (بيروت ١٣١٣) أنَّه مات في سنة ٣٣٠. ولم أعرف سند ذلك، وأظنّ أن الناشر وجده في النسخة المطبوع منها.

* وذكره بعض علماء القرن الرابع فلم يذكروا تاريخ وفاته، وهم: المسعودي المتوفَّى سنة ٣٤٦ في المروج ٣٦٢/٤ - ٣٦٩، والشابُشْتي المتوفَّى سنة ٣٨٨ في الديارات ٢٦٠، وابن النديم في الفهرست ١٥٤. ويُستفاد من مجموع كلامهم أنَّه كان من رجال أوائل القرن لأن المسعودي التقى به وذكر أشياء من شعره أُنشدت في مجلس المستكفي العباسي الذي تولَّى الخلافة من سنة ٣٣٣ إلى سنة ٣٣٤، ولم يذكر الشابُشْتي وابن النديم بقاءه إلى عصرهما.

* ولم يترجم له الثعالبي المتوفَّى سنة ٤٢٩ في يتيمة الدهر، وإنَّما ترجم لابنه أبي نصر، وهو لا يُقارَن به. هذا مع أنه من أشهر شعراء الشام والثعالبي شديد الإعجاب بهم، ومع قوله عن ديوانه (وهو إذ ذاك ريحان أهل الأدب بتلك الديار). فالتفسير المعقول لذلك أنه عاش قبل العصر المقصود من تصنيف اليتيمة، كما لم يترجم لأمثاله كالخبزرزّي والصَّنَوبريّ.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

* وأثنى عليه ابن شرف القيرواني المتوفَّى سنة ٤٦٠ في مقامته المسمّاة برسائل الانتقاد (انظر رسائل البلغاء ٣٢١). وليس من طريقته ذكر الوفيات، ولكن أسماء الشعراء في كلامه مرتَّبة على العصور إجمالاً، فجعله بعد ابن المعتزّ وابن الرُّومي وقبل الصَّنَوبريّ والخبزرزِّي وأبي فراس والمتنّبي.

* وترجم له الحافظ ابن عساكر المتوفىَّ سنة ٥٧١، وهو أشهر مؤرخي بلاد الشام، في مختصر تاريخ دمشق ١١٧/٢٤، **ولم يذكر تاريخ وفاته**.

* وترجم له ابن العديم مرَّتين في بُغية الطلب، ولكنَّ الترجمة المطوَّلة ضاعت فيما ضاع من أجزاء الكتاب، وبقيت المختصرة وهي سطران. وبقيت ترجمة ابنه أبي نصر وهي مفيدة جدّاً في معرفة عصر أبيه.

* وترجم له الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ في الكتب المذكورة قبل، وكنّاه بأبي نصر، وجعله ضمن وفيات سنة ٣٦٠ من غير تصريح بتاريخ وفاته. وقال (روى عنه الحُسين بن عُثمان الخرقي وغيره)، وسيأتي بيان ما فيه من الخلط.

* وترجم له الصفَدي المتوفَّى سنة ٧٦٤ في الوافي. ولم أقف على كلامه بعد، وأظنّه موجوداً في كتاب ابن شاكر لأنه يسلخ كلامه غالباً.

* وترجم له محمَّد بن شاكر الكتبي المتوفَّى سنة ٧٦٤ في عيون التواريخ ٦١/١٢ (نسخة الظاهرية) وفوات الوفيات ٩٩/٤، وقال في الفوات (كان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ... وكانت وفاته في حدود الخمسين وثلاث مئة).

* وقال ابن كثير المتوفَّى سنة ٧٧٤ رحمه الله في البداية والنهاية ٢٨٥/١٦ فقال (كشاجم: شاعر زمانه، يذكر مع المتنبي. وهو **أبونصرمحمود بن حسين**، له ذكر في تاريخ دمشق، روى عنه الحسين بن عثمان الخرقي وغيره). وهذا الكلام مليء بالأوهام.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

• وترجم له الزركشي المتوفَّى سنة ٧٩٤ في عقود الجمان ٣٢٢ (وهو مخطوط لم أقف عليه بعد).

• وترجم له السيوطي المتوفَّى سنة ٩١١ في حسن المحاضرة ٥٦٠/١، وكنّاه بأبي نصر، ولم يصرّح بتاريخ وفاته، ولكن جاء به مع المتنبي في سياق واحد. وورد في حاشية الأعلام للزِّركلي أنَّه سلكه في الوفيات الواقعة بين سنة ٣٤٥ وسنة ٣٥٤.

• وذكره الحاج خليفة المتوفَّى سنة ١٠٦٧ في كشف الظنون ٨٠٧/١ وفي مواضع أخرى، فجعل وفاته في سنة ٣٥٠.

• وترجم ابن العماد الحنبلي المتوفَّى سنة ١٠٨٩ في شذرات الذهب ٣٧/٣، وجعل وفاته في سنة ٣٦٠.

• وذكره الزبيدي في تاج العروس ٤٦/٩، ولم يذكر متى مات.

• وترجم له جورجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ٣٥٤/٢ فلم يقطع بشيء في تاريخ وفاته.

• وترجم له بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٧٧/٢، وجعل وفاته في سنة ٣٥٠ أو ٣٦٠. وقال (كان يعمل في خدمة سيف الدولة مُنَجِّماً ورئيساً للطبّاخين). وقال إنه مدح ابن حمدان أمير الزاب من بلاد إفريقية. وهو غلط محض كما يتَّضح من مراجعة مصدره وهو كتاب رسائل الانتقاد لابن شرف. ولكنَّه تكرر في غير كتاب من غير إشارة إلى كتاب بروكلمان!

• وترجم له الزِّركلي في الأعلام ١٦٧/٧، فجعلها في سنة ٣٦٠، مع الإشارة إلى الأقوال الأخرى. ولكنَّه قال (استقرَّ في حلب فكان من شعراء أبي الهيجاء ثمَّ ابنه سيف الدولة.). وهذا وهم في العبارة لأن أبا الهيجاء لا علاقة له بحلب. وقال (وقيل: كان في أوَّليَّته طبّاخاً لسيف الدولة)، وهذا وهم آخر لأن صلته بسيف الدولة على فرض صحتّها لم تقع إلا في آخر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حياة كَشاجم.

* وترجم له كحالة في معجم المؤلفين ٨٠٣/٢ (الطبعة الجديدة)، فجعلها في سنة ٣٦٠.

* ونقل المستشرق ولفنسون في مقالة له في مجلة المجمع بدمشق ٢١١/١٨ (١٩٤٣) الأقوال المختلفة في تاريخ وفاته ولم يرجِّح شيئاً منها، إلا أنه أشار إلى انقطاع أخباره في عصر سيف الدولة.

* وترجم له الدكتور محمَّد أسعد طلس رحمه الله في مقدِّمة كتاب المصايد. فقدَّر مولده بسنة ٢٩٥، وهو غلط ظاهر يتعارض مع قول المصنّف في الصفحة ١٦ (وكلّ ما أذكره من ذلك سماعي من إبراهيم بن جابر بحلب سنة أربع وثلاث مئة)، فهذا ليس قول ابن تسع. وكتب على الغلاف (المتوفَّى بعد سنة ٣٥٨)، اعتماداً على أنَّه هجا كافوراً الإخشيدي، وهذا وهم فاحش أيضاً.

* وعدَّه الدكتور عبد الوهاب عزام ضمن شعراء سيف الدولة، وأشار إلى أنه مدح ابن حنزابة وزير كافور (ذكرى أبي الطيِّب ١٩و ١٠٨). ولا أصل لذلك كلّه.

* وترجم له الدكتور سامي الدهان رحمة الله في كتابه قدماء ومعاصرون ١٣ ـ ٣٠، وجعله من شعراء سيف الدولة، وكتب في الحاشية (المتوفَّى سنة ٣٤٠). ولكنَّه ذكر في موضع آخر أن التاريخ لم يحفظ سنة وفاته. فمن الواضح أنَّه لم يبحث هذه المسألة مع اهتمامه المعروف بشعراء الشام في القرن الرابع.

* وترجم له الدكتور فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي ٤٤/٤/٢ في جملة شعراء سيف الدولة، فقال إنه قدم إلى مصر سنة ٣٣٩ (ولم يذكر سند قوله هذا)، ورجّح أنَّه مات في سنة ٣٦٠.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

* وذكره الدكتور عمر فرّوخ في تاريخ الأدب العربي ٢/٥٠٥، وأشار إلى مولده في بَلْخ من غير ذكر المصدر ـ وهو غريب جداً ـ وجعل وفاته في سنة ٣٦٠.

* أما الدكتور شوقي ضيف فلم يترجم له في كتاب العصر العباسي الثاني الذي ينتهي عند سنة ٣٣٤. وإنّما ذكره في الكتاب التالي وهو كتاب عصر الدول والإمارات (قسم الشام ١٨٩)، وقال: نظنّ ظناً أنه وُلد سنة ٢٩٠، ورجّح وفاته في سنة ٣٦٠، وأشار إلى صلته بسيفّ الدولة.

* وقال الدكتور إحسان عبّاس في حاشية ديوان الصَّنَوبري ٢٩٤ (ومن الظاهر أن كَشاجم تُوُفّي قبل الصَّنَوبري في حدود سنة ٣٣٠)، وهو رأي ما أحراه بالصحّة، وقد مات الصَّنَوبريّ في سنة ٣٣٤ كما هو معلوم. وأضاف (ويقال إنّه خطب إلى الصَّنَوبريّ ابنته)، هكذا بعبارة التمريض من غير ذكر المصدر، والذي في ديوان كَشاجم تعزيتُه بموت بنته.

* وذكرت السيدة خيرية محفوظ في مقدّمة الديوان ما قيل عن وفاته في سنة ٣٦٠، وأن الأكثر على وفاته في سنة ٣٥٠، فكأنها ترجّح ذلك.

* وسلكه الدكتور مصطفى الشكعة مع أبي الفرج الببغاء في عداد كُتّاب سيف الدولة من غير إحالة على مصدر (انظر كتابه: سيف الدولة الحمداني ٢٤٢). وقد ذكر كثيراً من رسائل الببغاء المكتوبة لسيف الدولة ولم يذكر شيئاً لكشاجم. ولا شكّ عندي أنه ركّب وصفه بالكتابة على عمله المزعوم عند سيف الدولة، فصار كاتباً من كتّابه.

* وذهب الأستاذ هلال ناجي في كتابه هوامش تراثية إلى أن مولده لا يُعلم على وجه التحقيق، ورجّح وفاته سنة ٣٥٠.

* وبلغني أن الدكتورة ثريا ملحس لها عنه رسالة جامعية، مقدّمة إلى الجامعة اليسوعية سنة ١٩٨١. ومما ورد فيها أنه ولد في بغداد ومات بها،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فهو بغدادي لا رَمْليّ، لأن الرملة غير مذكورة في شعره، ورجَّحت أنه مات سنة ٣٤٨. ولم أقف على هذه الرسالة، ولا أطمئن إلى هذه النتائج، والرجل شاميّ رَمْليّ حلبي من غير شكّ.

* ومضى أن الدكتور شعلان كتب على غلاف الديوان أنه مات في سنة ٣٦٠، من غير تحقيق لهذه المسألة المهمَّة.

فالحاصل أن القدماء إلى منتصف القرن الثامن لم يذكروا تاريخ وفاته، ومنهم ابن عساكر مؤرخ الشام. ولكن طريقة المتأخرين في ترتيب التراجم على طبقات، بدلاً من ترتيبها على الحروف أو نثرها كما يتَّفق، تجعلهم يضطرّون إلى الاجتهاد والتخمين لوضع الترجمة التي يجهلون وفاة صاحبها في أصلح الأماكن لها على وجه التقريب والتقدير، وقد صرَّح بذلك الذهبي في غير موضع من كتاب تاريخ الإسلام. وهذا تفسير صنيعه وصنيع من جاء بعده في تقدير وفاة كَشاجم، فإنهم قرؤوا ما يَدُلُّ على أنه كان من رجال سيف الدولة ـ بصرف النظر عن صحَّة ذلك في نفسه ـ فاجتهدوا في تقدير تاريخ وفاته وجعلوها في سنة ٣٥٠ أو ٣٦٠.

وتابعهم أكثر أهل عصرنا من غير تحقيق، وانطلقوا إلى التشكيك في عدد الآباء بينه وبين جدِّه السندي وتخيّلوا أشياء لا أصل لها. ولا يُستغرب ذلك من بروكلمان والزِّركلي وكحالة وفرّوخ وسزكين وغيرهم ممَّن يكتبون تواريخ عامّة، وإنَّما يُستغرب ممَّن فرغ للترجمة له وتحقيق ديوانه ومصنَّفاته فلم يحقّق عصره وتاريخ وفاته، ويمرّ على الشواهد الكثيرة فلا يقف عندها.

والحقّ أن القول بوفاته في سنة ٣٦٠ أو بعد سنة ٣٥٨ **باطل قولاً واحداً**. والدليل على ذلك ما نقله ابن العديم من خطّ أديب مصري مشهور من أهل الضبط والتحقيق كان يعيش في ذلك العصر، وهو صالح بن إبراهيم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ابن رِشْدين راوية أبي الطيِّب المتنبّي، قال (هجا أبو الحسن محمَّد بن هارون الأكثمي أبا الفرج وأبا نصر عُبيد الله وأحمد ابني كَشاجم بهذه الأبيات فلم يجيباه:

أبْنَيْ كَشاجم أنتما ... مُستعملان مُجَرَّبانِ
لو تَكْتُبان لذا الزما ... نِ أمَتُّماهُ بلا زمانِ
مات المَشُومُ أبوكما ... فخَلفتُماهُ على المكانِ
وقُرِنتُما في **عصرنا** ... ففعلتُما فعلَ القِرانِ
بغَلاءِ أسعار الطعا ... مِ **وميتةِ الملك الهجانِ**

فكتب ابن العديم بخطه في الحاشية بإزاء البيت الأخير (الملك كافور). وهذه الأبيات موجودة في اليتيمة أيضاً ١/٣٩٣ من غير تفسير. ولقد أشار الشاعر في البيت الثالث إلى وفاة أبيهما المشؤوم كَشاجم، ويُفهم من كلمة «عصرنا» في البيت الرابع أنَّ موته متقدِّم بعض الشيء. وتضمَّن البيت الخامس ما يَدُلُّ على تاريخ الأبيات وهو وفاة كافور في سنة ٣٥٦. وقال ابن العديم في موضع آخر ٣/١١٢ (تُوفِّي أبو نصر بعد موت كافور في حدود الستين والثلاث مئة). فلقد مات كَشاجم قبل سنة ٣٥٦ يقيناً. والإشارة واضحة في هذه الأبيات إلى اشتغاله وأبنائه بصنعة الكتابة وأنهم كانوا رجال دولة، فهي تدحض ما قيل من اشتغاله بالطبخ لسيف الدولة، ولو وقع ذلك لأشار إليه هذا الشاعر في هجائهم.

دلالة الديوان على عصره:

لم أجد في الديوان نصّاً يدل على تاريخ مولده ولا وفاته، ولكنَّ فيه إشارات كثيرة يشهد بعضها لبعض، **وهي قاطعة الدلالة على أنه من مخضرمي القرنين الثالث والرابع.**

فلقد مدح أبا الحَسن عليّ بن سُليمان الأخفش ـ النحويّ المشهور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المتوفى سنة ٣١٥ ـ بقصيدتين، وفيهما إشارة إلى وجود الأخفش في الشام آنذاك (الديوان ٤٢ و ٥٨، وستكون الإحالة على الطبعة المصرية بتحقيق الدكتور شعلان). وفي ديوان الصَّنَوبريّ ٣٧٣ و ٤٢٠ قصيدتان في مدحه أيضاً. ويُستفاد من أخبار الأخفش أنه ذهب إلى مصر في سنة ٢٨٧، ثمَّ جاء إلى حلب في سنة ٣٠٠، ثم عاد منها إلى بغداد في سنة ٣٠٥. فينبغي أن يكونا قد مدحاه **في أوائل القرن الرابع** عندما كان يقيم في حلب. وهذه قرينة قوية جداً.

ويهدينا ديوانه وديوان الصَّنَوبريّ إلى عمق الصداقة بينهما، وقد تبادلا قصائد كثيرة، واستهداه كشاجم أشجاراً ليغرسها في حديقته، ولا يكون استهداء الأشجار إلا إذا كانا مستقرَّين في بلد واحد،أي في حلب. وثَمَّة قصيدة متنازعة بينهما، أعني أنها موجودة في ديوا نيهما. ورأى الدكتور شعلان أن كَشاجم أعطاها للصَّنَوبريّ ليقرأها فدخلت في ديوانه. والأمر في ظنّي على العكس؛ لأن ديوان كَشاجم مضطرب غير مسموع عليه، ويظهر أنه جُمع بعد وفاته، فمن السهل أن تدخل فيه أشعار لغيره.

ومع ذلك كلّه لا نَجِد رثاء أحدهما لصاحبه، ولكنَّ ديوان كَشاجم باقٍ بتمامه وديوان الصَّنَوبريّ ناقص بمقدار الثلثين تقريباً. فالأقرب إلى المعقول أن يكون رثاء الصَّنوبري لكَشاجم ضاع فيما ضاع من ديوانه.

وقد تواردا على مدح كثير من الرجال غير الأخفش أو هجائهم أو رثائهم، ومنهم أبو العباس محمَّد بن أحمد بن عبد الله الرَّشيديّ وأبو الحُسين الهاشمي وعبد الملك بن محمَّد الهاشمي وأحمد بن إسماعيل الإسكافي وأبو بكر الدقيشي، فهذا يَدُلُّ بوضوح على تعاصرهما زماناً ومكاناً. ولم أجد بياناً شافياً عن هؤلاء القوم، ولعلَّ المصادر لا تخلو من الإشارة إلى بعضهم. وأظنّ أنَّ أبا العباس الرشيدي كان يلي بعض الأعمال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في حلب أو غيرها من بلاد الشام؛ لأن كَشاجم يطلب منه تشغيله في وظيفة الكتابة. فإن صحَّ ذلك فينبغي أن يكون في أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع عندما كان الحلّ والعقد بيد الخليفة العباسي؛ لأن أمور الخلافة اضطربت كثيراً بعد مقتل المقتدر في سنة ٣٢٠، ووثب الناس على الولايات، فلا مجال لتولية أمير من البيت العباسي إلا في عصر سيادة الخلافة.

وترجم ابن العديم في البغية ٣/٥٠ لأبي الحسن أحمد بن محمَّد بن أبي يعقوب بن هارون الرشيد، وذكر أنه يلقب بالرشيدي، ومدحه الشعراء من أمثال الصَّنوبري وابن الزكورية الأنطاكي، **وروى عنه أبو الفتح كشاجم وأبو بكر الصولي**، وتولى أحكام المظالم والأمور الدينية ـ يعني في حلب على ما يظهر من سياق الكلام ـ وكان له عناية برواية الحديث، وتوفي في سنة ٣١٤. فهذا ينطبق على الممدوح من كلّ وجه إلا الاختلاف في الاسم والكنية!

وقال كشاجم في كتاب المصايد ٧ (أخبرني بمثله أبو بكر الصولي). وقد ولد الصولي في سنة ٢٥٠ تقريباً ومات في سنة ٣٣٥، ومن الواضح أنه كان من أقران كشاجم. ولا أدري هل التقيا في الشام أم في العراق. وفي وفيات الأعيان ٢/١٤ خبر يرويه الصولي عن كتاب المصايد لكشاجم، وأخشى أن يكون وقع خلل في هذا الموضع من وفيات الأعيان، ولا يصحّ تعليق المحقِّق بأن الصولي قد يكون ذكره في شرح ديوان أبي تمام لأنه غير موجود فيه.

وفي الديوان قصيدة في مدح أبي عليّ بن مُقْلة الوزير الخطّاط المشهور، وقد تولى الوزارة ثلاث مرات بين سنتي ٣١٦ ـ ٣٢٤ (الديوان ٣١٠). فقد يكون كَشاجم جاء إليه في بغداد أو أرسلها إليه من الشام.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمُهِمّ أن تاريخها يشهد مرَّة أخرى لوفاته في أوائل القرن، لا لأنه يستحيل بقاؤه إلى منتصف القرن، ولكن لأن غزارة هذه الإشارات إلى أوَّل القرن يقابلها ضحالة شديدة في الإشارات إلى منتصف القرن كما سيتَّضح إن شاء الله.

وفيه قصيدة أخرى حاسمة في الدلالة على عصره، وهي في مدح الحسن بن الحسن بن رجاء، وسمّاه فيها بالحسن بن الحسن، وخاطبه بابن رجاء، والتمس فيها منه عملاً في مجال الكتابة (انظر الديوان ٣٨٠). وممَّا قاله فيها:

سليلُ أكابرَ سَنُّوا العُلا ... فأكْرِمْ بها وبهم من سُنَنْ
همُ أثبتوا المُلكَ في أُسِّهِ ... وشادوا دعائمَه والرُّكُنْ

فالممدوح وآباؤه كانوا من الولاة والقادة ورجال الدولة، وهذا هو الواقع. فجدّه رجاء بن أبي الضحّاك كان والياً على الخراج بدمشق فقُتل هناك في حادثة مشهورة ذكرها الطبري وغيره في حوادث سنة ٢٢٦. ووالده الحسن بن رجاء الكاتب المعروف، لم أعرف تاريخ مولده ولا وفاته ولم أجد له ترجمة شافية، ولكنَّه كان غلاماً في عصر المأمون، وقد كلَّمه فأُعجب بكلامه ورفع منزلته، وله شعر في مدحه (انظر مختصر تاريخ دمشق ٣٣٥/٦ وإعتاب الكتاب ١٦٨ والمذاكرة للنشابي ٢١٠ وحاشية ديوان البُحتُري ٢٣٤٦/٤). ومدحه أبو تمّام بقصيدتين وهجاه البُحتُري، وله أخبار مع أبي تمّام ذكرها الصولي في أخبار أبي تمام ١٦٧ - ١٨٢. وذكر ابن القارح في رسالته إلى المعرِّي ٤١ أنه كاد أن يضرب عُنقه بسبب استهزائه بالصلاة، فقال أبو العلاء في رسالة الغفران ٤٨٣ إن هذه الحكاية مشهورة. فيتَّضح من مجموع ذلك أنه ينبغي أن يكون قد وُلد قبل المئتين لأن المأمون قدم إلى بغداد من خراسان في سنة ٢٠٤ ومات في سنة ٢١٨، ومات أبو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تمّام في سنة ٢٣١. أمّا ابنه الحسن بن الحسن - ممدوح كَشاجم - فمعروف أيضاً وتاريخ وفاته محفوظ، فلقد ولاه الخليفة المكتفي - المتوفّى سنة ٢٩٥ - على أعمال الخراج والضِّياع بحلب، ومات فيها فجأة في شهر جُمادى الأولى سنة ٣٠١ فنُقل تابوته إلى بغداد (انظر صلة تاريخ الطبري ٢٥ وزبدة الحلب ٩٥/١). وترجم له ابن العديم في موضعين من بغية الطلب ٣٤٦/٥ و٥/ ٣٦٦ لأنه كان يظنّ أنَّه الحسن بن الحُسين ثمَّ صحَّ لديه أنَّه الحسن بن الحسن، وذكر أنَّه كان والي حلب وأنه دُفن فيها. وكان ينبغي لمحقق الديوان أن يعرف هذه الحقائق التاريخية المُهِمّة، وهي قريبة المتناول في كتب التاريخ المعروفة.

ومدح ثلاثة من التّنوخيين: الحُسين بن عليّ، وأبا الحسن عُبيد الله بن إبراهيم، ورجلاً يقال له أبو القاسم (الديوان ١٥، ١٨، ٤٤٧). وذكر أن الحُسَين «من بني الفُصَيص»، وقال فيه:

تلقى الملوكَ الصِّيدَ حول رواقهِ لـلإذنِ أو زُمَراً على أبوابِهِ

فهذا يَدُلُّ على أنَّه كان أميراً. وذكر أن عُبيد الله من «آل إبراهيم» أي من بني الفُصَيص أيضاً. وقال على رأس مدح أبي القاسم (وقال يتشوَّق قوماً من بني الفُصَيص ويذكر رحيلهم عن الساحل)، والقصيدة صريحة في أنَّهم أُخرجوا من ساحل الشام بالقوَّة.

وهؤلاء القوم معروفون، فهم أمراء اللاذقية وما حولها، والفُصَيص هو جدّهم يوسف، وكان له ابنان: إسحاق وإبراهيم، ولا يمتنع أن يكون له ابن ثالث اسمه عليّ هو والد الحُسين هذا، وأكاد أجزم بأنَّ عُبيد الله بن إبراهيم أخو عليّ بن إبراهيم ممدوح المتنّبي. وقال ابن العديم في زبدة الحلب ٩٧/١ (ثمَّ ولّى مُؤنسُ المظفَّرُ غلامَه طريفَ بن عبد الله السَّبْكريّ الخادم في سنة ٣١٩، وكان ظريفاً شهماً شجاعاً. وحاصر بني الفُصَيص في حصونهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باللاذقيّة وغيرها. فحاربوه حرباً شديداً حتّى نفد جميع ما كان عندهم من القُوت والماء، فنزلوا على الأمان، فوفّى لهم وأكرمهم، ودخلوا معه حلب مكرمين مُعظَّمين)، ولم يذكر اسم أمير بني الفُصَيص. ولكنَّ المفهوم من كلامه في بُغية الطلب ٤٩٢/١ أنه إبراهيم، ومن كلامه في البُغية ٣٥/٣ أنه إسحاق. وبين هذه النصوص بعض تعارض، ويظهر أن ابن العديم نقلها من مصادر مختلفة.

ثمَّ تمكَّنوا من استعادة اللاذقيّة، وجاء إليهم أبو الطيّب المتنبي من العراق في حدود سنة ٣٢١ ونزل في ضيافتهم، قبل أن يثور في بادية السماوة. فمدح كبيرهم محمّد بن إسحاق (ولكنه فيما يظهر صرف ذلك المدح إلى أخيه الحُسين بن إسحاق، ويطول الكلام في تفصيل أسباب ذلك). ثمَّ مات محمَّد فرثاه أبو الطيّب ومدح أخاه الحُسين، وأشار إلى الخلافات بينهم وبين أبناء عمِّهم إبراهيم. ومن الواضح أنه كان منحازاً إلى آل إبراهيم، وقيل إنه هجا آل إسحاق، وزعم هو أن الهجاء قيل على لسانه. ولعلّ ذلك الخلاف كان له صلة بالدعوة الباطنية كما قال الأستاذ محمود شاكر رحمه الله. ثمَّ وثب عليّ بن إبراهيم واستولى على الإمارة، فوفد عليه أبو الطيّب في حدود سنة ٣٣٠، ومدحه وحرَّضه على استئصال شأفة أبناء عمِّه.

فهذه التواريخ تدلّ على أن قصيدة كشاجم في مدح أبي القاسم قيلت في حدود سنة ٣٢٠، عندما كانوا في المنفى بحلب. ويُفهم منها أنَّه كان سيِّد قومه، ولكنَّه لم يذكر اسمه. ولم أجد النصّ على كُنيتي الأبوين إسحاق وإبراهيم. والذي أظنّه أنهما قد ماتا قبل ذلك بكثير، وأن ما نقله ابن العديم من مصادره لا يصحّ، وشعر أبي الطيب يدلّ على أنهما كانا في الأموات سنة ٣٢١ لأنه كان يمدح ويهجو ويرثي أبناءهما. فعلى ذلك يكون أبو القاسم ممدوح كشاجم هو محمد بن إسحاق الذي رثاه المتنبي، ومعلوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن أبا القاسم كنية أكثر المحمَّدين.

ولقد طوتهم الأحداث بعد بضع سنين على أيةِ حال، حين دخلت اللاذقيّة وجميع ما حولها في مُلك سيف الدولة. فآخر تاريخ معقول لبقيَّة القصائد هو سنة ٣٣٣، وهذا يتّفق مع تقديرنا لعصر كشاجم.

وظنّ الدكتور محمد أسعد طلس أنه هجا كافوراً الإخشيديّ المتوفى سنة ٣٥٦ بالقصيدة التي أوَّلها:

أكافُور قُبِّحْتَ مِنْ خَادِمٍ ... ولا قتْكَ مُسْرِعةً جائحَهْ

وأحال على كتاب الإعجاز والإيجاز للثعالبي ٢٥٨، وبناء على ذلك وضع على غلاف كتاب المصايد (المتوفَّى بعد سنة ٣٥٨). **وهو وهم بلا شكّ**، لأن الثعالبي لم يَقُل إنها في كافور الإخشيديّ وإنَّما في كافور فقط، وكان ينبغي مراجعتها في الديوان. والقصيدة ثابتة فيه (الديوان ٩٥)، وتوجد كذلك في خاص الخاص ١٣٥ ولباب الآداب ١٠٢/٢ وهما للثعالبي أيضاً. وقيل على رأسها في الديوان (قال يهجو كافوراً، **غلام له**)، فثبت أنَّه لا علاقة لها بكافور الإخشيديّ. وممّا يُستطرف أن بعض متأخري المغاربة ركَّب على هذا الوهم في كافور وهماً آخر، فجعلها لأبي الطيّب المتنبّي وأدخلها في ديوانه!

وورد في خاتمة نسخة الأصل المصرية ما مختصره (قال أبو بكر محمَّد بن عبد الله الحمدوني: هذا آخر ما وقع إلينا من شعره **وما صحّ عنه**، قد جمعتُه وألَّفتُه على حروف المعجم. ثمَّ لقيتُ أبا الفرج بن كَشاجم بالرَّيّ فأنشدني لوالده ...)، وساق أشعاراً غير قليلة ليست في أصل الديوان، وسيأتي القول في كثير منها. وهذا هو نفس الابن المذكور سابقاً. ولا نعرف متى وقع هذا اللقاء بينهما، ولكن ينبغي أن يكون الحمدوني قد جمع الديوان بعد وفاة الشاعر، وأن يكون الديوان بزياداته موجوداً في حياة السَّريّ الرَّفّاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(المتوفَّى سنة ٣٦٢ على أصح الأقوال)؛ لأن الأشعار التي قال الثعالبي إنَّه دسَّها في الديوان موجودة في متن هذه النُّسخة وزيادتها. ومن الواضح على أية حال أنَّ كَشاجم مات قبل السَّريّ بوقت طويل. فمن البعيد أن يشتغل بنسخ ديوان شاعر لا يزال على قيد الحياة فيدسَّ فيه أشعار الخالديين، ولا أن يتجرأ الخالديان فيسرقا منه هذه القصائد غير القليلة ثمَّ لا يفطن الناس إلى ذلك.

دلائل أخرى من التاريخ:

ولقد ورد في التواريخ ما يشير أيضاً إلى أن كَشاجم كان من مخضرمي القرنين، ومن ذلك:

* أن السندي بن شاهك جدّه القريب، وعصره ما علمت، فالمعقول أن يكون حفيده قد وُلد في النصف الثاني من القرن الثالث ومات في النصف الأول من القرن الرابع. ولا حاجة لاستشكال ذلك ومُعالجته بإضافة أسماء لا أصل لها.

* ورد في كتاب المصايد ما يدلّ على أن المصنِّف كان رجلاً بالغاً في مطلع القرن الرابع، ومضت الإشارة إلى ذلك.

* ذكر بعض المؤرخين أنَّه كان من رجال أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة، وقال ابن شاكر في عيون التواريخ إنَّه جاء معه إلى الموصل. ومعلوم أنَّه ولي الموصل مرتين: الأولى من سنة ٢٩٣ إلى سنة ٣٠١، والثانية سنة ٣١٤ ثمَّ مات مقتولاً في سنة ٣١٧. فهذا إن صحَّ دليل قاطع.

* ومضى النصّ على أن أبا الفرج وأبا نصر كانا رجلين من رجال الدولة في سنة ٣٥٦، بل قبل ذلك. ومضى تصريح ابن العديم بأن أبا نصر تُوُفِّي بعد موت كافور في حدود الستين والثلاث مئة.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

* وترجم الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩) لأبي نصر في اليتيمة ٢٨٥/١، **فروى عنه بواسطة رجل واحد،** وذكر شعراً له في مدح إسحاق بن كيغلغ (مهجوّ المتنبّي الذي مات مقتولاً بيد غلمانه في سنة ٣٤٨)، وفي مدح ابن حنزابة وزير كافور. فمن الواضح أنه كان من طبقة المتنبّي وسيف الدولة وكافور، كما كان أبوه كَشاجم من طبقة الصَّنَوبريّ وأبي الهيجاء والد سيف الدولة.

* وروى الخطيب البغدادي في كتاب البخلاء ١٢٦ (طبعة مصر ١٩٩٠) شعراً لكشاجم بالإسناد المتَّصل إلى صالح بن رِشدين راوية أبي الطيِّب وصاحبه في مصر، عن أبي نصر. وهذا يدلّ أيضاً على أن الابن كان من طبقة أبي الطيِّب.

* وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي نصر قول أبي عبد الله الحُسين بن عُثمان الخِرَقي إنَّه - أي الخرقي - كان في الرملة سنة ٣٥٦ وقد ورد إليها أبوعليّ القرمطي صاحب الأحساء، **وذكر أنَّ أبا نصر بن كَشاجم كان كاتبه،** وحكى حكاية شهدها هو وأبو نصر في مجلس القرمطي، وفيها أبيات في الشمعة قالها القرمطي بديهاً فأجازها أبو نصر (انظر مختصر تاريخ دمشق ٣١١/٦).

انقطاع أخباره في عصر سيف الدولة:

هذه الإشارات التاريخية المتواترة يقابلها ويشهد لها غيابٌ تامّ في الإشارات إلى مابعد سنة ٣٣٠. وقد شهدت هذه السنوات قيام الدولة الحمدانية في حلب، ولقي الشعراء من رعاية سيف الدولة ونواله مالا نظير له، فطرؤوا على حلب من البلدان كافة. ولقد مات الصَّنَوبريّ بعد دخول سيف الدولة إلى حلب بسنة أو أقل، ومع ذلك لم يَفُته أن يمدحه بقصيدة موجودة في ديوانه. ولكن لا ذكر له في ديوان كشاجم ولا ذكر لكشاجم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في أخبار سيف الدولة وأسماء شعرائه! وليس يُعقل أن يعيش مثله في حلب، ويعاصر أحداث الجهاد والصراع مع الروم، فلا يقول شيئاً في مدح هذا الأمير الكريم المجاهد! فكيف غاب صوته وانقطعت أخباره؟ إنَّ الجواب الواضح أنَّه كان قد غادر الدنيا قبل أن يأتي سيف الدولة إلى حلب.

وقال الثعالبي في اليتيمة ١٤/١ (وكان أبو بكر الخُوارِزمي في ريعان عمره وعنفوان أمره قد دوَّخ بلاد الشام، وحصل من حضرة سيف الدولة بحلب في مجمع الرواة والشعراء، ومطرح الغرباء الفضلاء. فأقام ما أقام مع أبي عبد الله بن خالوَيْه وأبي الحَسن الشمشاطي وغيرهما من أئمة الأدب، وأبي الطيّب المتنّبي وأبي العباس النامي وغيرهما من فحول الشعراء). وقال أبو العَلاء المعرِّي في مقدِّمة شرح ديوان ابن أبي حَصينة (وقد كان عليّ بن عبد الله بن حمدان أقام سوقاً للشعراء، وتفردَّ بتقريبهم دون الأمراء. فرحل إليه قريبهم والبعيد، والتُمس عنده النَّوَال الرغيب لا الزهيد، فما اشتهر منهم إلا نفر قليل، منهم أحمد بن الحسين المتنّبي، وأحمد بن محمَّد النامي، والحارث بن سعيد المعروف بأبي فراس، ورجل يُعرف بابن كاتب البُكْتُمُريّ). ومن شعرائه أيضاً: أبو الفرج البَّبغاء وأبو العباس الصفري وابن كوجك والخالديان وأبو الحصين الرَّقّي والشيظمي وأبو ذرّ وأبو محمَّد الفياض، ولاذكرَ لكَشاجم!

أمّا القول بأنه كان طبّاخاً عنده فلم يَرِد إلا في كتب المتأخرين كالصفدي في الوافي ١٩٥/٢١ والجزولي في مطالع البدور ١٧٦/٢، وذكره ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ٣٨/٣ بصيغة التمريض. وعبارة الصفدي (والناس يسمّون عصره وزمانه: الطراز المُذْهب؛ لأن الفضلاء الذين كانوا عنده والشعراء الذين مدحوه لم يأت بعدهم مثلُهم: خطيبه ابن نُباتة، ومعلِّمه ابن خالوَيه، وطبّاخه كَشاجم، والخالديان خُزّان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتبه، والمتنبي والسَّلامي والوأواء والببَّغاء وغيرهم شعراؤه). وهذا كلام إنشائي خالٍ من التحقيق، فابن خالوَيه لم يكن معلِّماً لسيف الدولة بل لأولاده، والسلامي والوأواء لا أعلم أنهما كانا من شعرائه.

ولا أرتاب في أنه ضرب من التلفيق بعد الخلط بين كشاجم وبين ابنه أبي نصر، فلقد ذكر ابن فضل الله في مسالك الأبصار ١٥/؟ أنَّ أبا نصر كان ماهراً في الطبيخ، فإن صحَّ ذلك فلا يعني أنَّه كان يطبخ للناس. والذي يَدُلُ عليه الديوان أنَّ كَشاجم كان يتكسَّب بشعره ويمدح الأمراء والأعيان منذ أوائل القرن، ويفتخر بإجادة الكتابة وإتقان أدواتها ويلتمس توظيفه في أعمالها لا في المطابخ.

ولقد سطعت في تلك السنين شمس أبي الطيّب المتنّبي وبهر العقول وشغل الناس، واختلفت فيه الآراء واشتدَّ الجدل حوله. ولقد تتبَّعت جميع أخباره ما وسعني التتبُّع فلم أجد فيها أيَّة إشارة إلى كَشاجم، ولا تفسير له إلا أنه كان قد مات.

الرأي في حلّ هذا الإشكال:

لعلَّه اتَّضح الآن كثرة الأدلة على أنه كان من مخضرمي القرنين الثالث والرابع ولم يدرك عصر سيف الدولة، وأن أولاده عاشوا في عصر سيف الدولة وكافور، وأنه مدح الحسن بن الحسن المتوفَّى سنة ٣٠١ يقيناً. فلا غرابة في أن يكون السندي بن شاهك جدّ المادح معاصراً لرجاء بن أبي الضحاك جدّ الممدوح، ولا حاجة بنا إلى استشكال عدد الآباء وتكلّف الأسماء لسدِّ هذا الفراغ المزعوم. وينبغي أن يكون قد مات في سنة ٣٣٠ التي ورد ذكرها في بعض نسخ الديوان. فهذا يحلّ جميع الإشكالات، لأنها إنما رسخت في الأذهان بناء على الاقتناع بوفاته في سنة ٣٦٠، فإذا حُذفت ثلاثون سنة استقام الأمر.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد فرَّق ابن العديم وابن عساكر ـ وهما من أثبات المؤرخين ـ بينه وبين ابنه أبي نصر، وعقدا لكلّ منهما ترجمة مستقلة، كما ترجم الثعالبي من قبلهما لأبي نصر فقط وذكر أباه استطراداً في ترجمة السَّريّ الرَّفّاء ولم يخلط بينهما. **ولكن وقع لدى المُتأخِّرين خلطٌ غير مُستغرَب**، فظنّوا أن الشاعر المشهور هو أبو نصر، وألصقوا أخباره وكُنيته وتاريخ وفاته بأبيه الذي كان أشهر منه. فمن ههنا خلط الذهبي بينهما في النبلاء ١٦/٢٨٥، وظنّ أن الأب يكنى بأبي نصر مع أنَّه أبو الفتح بلا إشكال، وقال (روى عنه الحُسين بن عُثمان الخرقي وغيره) مع أن الخرقي يروي عن أبي نصر بلا إشكال أيضاً. وتابعه السيوطي على تكنيته بأبي نصر، واستشكل اسم محمَّد ابن محمود بن الحُسين ـ لأن كَشاجم اسمه محمود بيقين ـ فظن أنَّ الاسم مقلوب، فجمع بين الأغلاط وجعله أبا نصر محمود بن محمَّد بن الحُسين! ولا أرتاب في أن هذا الخلط هو أساس دعوى أن كَشاجم كان يعيش في عصر سيف الدولة وأنه مات في سنة ٣٥٠ أوفي سنة ٣٦٠. واستمر الخلط بينهما إلى عصرنا، فأضافت محقِّقة الطبعة العراقية أبيات أبي نصر في صفة الشمعة إلى متن ديوان أبيه (انظر الصفحة ٣٨٨).

أمّا الطرف الآخر من الإشكال التاريخي ـ أعني أن يكون السندي بن شاهك من خاصَّة أبي جعفر المنصور المتوفى سنة ١٥٨ ـ فلم يقُم عليه دليل صريح؛ لأن الجاحظ لم يقُل ذلك في البيان ٢/٣٢٨، وإنَّما هي أخبار رواها عن السندي تتّصل بأشياء وقعت في مجلس المنصور وليس فيها التصريح بالحضور، وإنَّما قال في أحدها (فما علمنا أن المنصور ضحك كيومَئذٍ)، وفي الآخر (فكفَّ عنه الربيع حتَّى ظننّا كذا وكذا). فهذه العبارات ليست صريحة، وهي على أيةحال ليست كافية لإسقاط كونه جدّ كَشاجم، ونحن لا ندري متى مات السندي وابنه الحُسين ولا متى وُلد حفيده كَشاجم، ومن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الممكن جداً اجتماع التواريخ المُناسبة بحيث يكون الحُسين قد وُلد في أوائل القرن الثالث وأبوه كبير السنّ، وأنجب ابنه كَشاجم في منتصف القرن أو بعد ذلك بحيث أصبح شاعراً يُشار إليه بالبنان في أوّل القرن الرابع. وليس في بقاء حفيد السندي إلى ثلث القرن الرابع مايدعو إلى الاستغراب الزائد، وأنا أعرف رجلاً وُلد بعد ابن عمّه بنحو ثمانين عاماً، ورأيته في مجلس وفيه شيوخ طاعنون في السن وهو شابّ، فمازحه بعض الناس قائلاً: إنك لشيخ كبير لأن والد هؤلاء ابن عمِّك!

وكان السندي عامل بغداد في عهد الرشيد، ثمَّ وجدتُ في العقد ٦/ ٤٤٥ وكتاب المكافأة لابن الداية ١٢٩ - وهما معاصران لكشاجم - أنَّ السندي كان من قوّاد المأمون وجلسائه. فهذا ينأى به عن عصر المنصور بنحو خمسين عاماً، ويُوغل به في القرن الثالث، ويقرِّبه إلى عصر حفيده كشاجم. وممَّا يَدُلُّ على ذلك أيضاً قول كَشاجم يمدح أبا العباس الرَّشيدي:

يااِبنَ مولى أبي نَصْرِ السِّنْـ ـديِّ رُكْنِ الخلافةِ المَشْدُودِ
جامعِ السَّيْفِ للخليفةِ والأقـ ـلامِ أَعْظِمْ بسَيِّدٍ ومَسُودِ
شَهِدَتْ غُرَّةُ الرَّشِيدِ على وجـ ـهِكَ بالمولدِ الزكيِّ السعيدِ

فهذا دليل صريح على أن السندي - وكنيته أبو نصر - كان من موالي هارون الرشيد وقادته وكُتّابه وأركان دولته. ومعلوم أن الولاء صلة ثابتة كالنسب، والغالب أن يكون ولاء الأعاجم لَمنْ أسلموا على أيديهم، وقد أسلم كثير منهم على أيدي العباسيين فانتسبوا إلى ولائهم. فمن البعيد أن يكون السندي من خاصَّة أبي جعفر المنصور وجُلسائه قبل أن يثبت ولاؤه لأحد، ثمَّ يصير في شيخوخته من موالي هارون.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net